عنوان البحث:

القرآن الكريم والدعوة إلى البحث العلمي

(دراسة تداوليّة نصّيّة لنماذج من الآيات القرآنية الداعية إلى البحث العلمي)

اسم الباحث/ـة

د/ علي أبولاجي عبد الرزاق

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه، أما بعد:

فإن مما لا يخفى على أيّ متدبر للقرآن الكريم أن هدايات القرآن الكريم تغطّي جميع مجالات الحياة، إذ لم يغادر هذا الكتاب العظيم صغيرة ولا كبيرة من مناحي الحياة الإنسانية إلا غطّاها.

اختار الباحث المحور الخامس من محاور المؤتمر (هدايات القرآن الكريم وأثرها في التطور العلمي والإبداعي المعرفي)، ليسلّط الضوء من خلاله على الإرشادات القرآنية الواضحة ودعواته الصريحة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى لفت أنظار المسلمين إلى المهمّة الملقاة على عواتقهم من القيام بالبحث العلمي والإبداع المعرفي، تلك المهمّة التي تخلّوا عنها لغيرهم، فأصبحوا بذلك مجرّد أمّة مستهلكة للمعرفة بدل أن يكونوا هم منتجيها بالدرجة الأولى.

المنهجية:

قام الباحث بمقاربة نماذج من الآيات القرآنية الداعية إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي مقاربة تداولية من جانب، ولسانية نصّيّة من جانب آخر، ثم اعتمد على اثنين من أشهر التفاسير هما: تفسير القرطبي وتفسير الكشّاف لاختبار مدى موافقة نتائج المقاربتين المذكورتين لفهم السلف الصالح للآيات المدروسة.

ويتوقّع أن تكون إضافة البحث في تشجيع المسلمين على استعادة دورهم الريادي في مجال البحث العلمي، ذلك الدور الذي أمر الله به في القرآن الكريم تمامًا كما أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من العبادات.

مقدّمة

لا يخفى أنّ الإسلام دين يحثّ على طلب العلم ويقدّر العلماء، ومن السهل جدا الاحتجاج لهذه الدعوى استنباطا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. وإذا كان من نقطة اختلاف فتتمثل في نوعية العلم الذي يشجّع الإسلام على طلبه ويؤجر طالبه عليه، ما بين من يقصره على العلم الشرعي بفروعه المختلفة، وهذا هو موقف الكثير من المتخصّصين في العلوم الشرعية، ومن يرى أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تحثّ على طلب العلم وتشيد بمكانة العلماء تربط فضل العلم بنيّة المرء عند إقباله على الطلب، وبمدى عمله بما علم، ما دام العمل بالنيّات. وإلى هذه الطائفة الأخيرة ينتمي الباحث.

وممّا دفع الباحث إلى هذا الاعتقاد أنّ آية الفاطر التي قصرت خشية الله على العلماء والتي تؤوّلها الطائفة الأولى بعلماء العلوم الشرعية، تكاد تخرج هذه الفئة منهم إذا عملنا بظاهر النص، لأنّ الآية تدور حول العلوم الطبيعية والكونية التي ليس لعلماء الشريعة اليوم فيها عير ولا نفير، وإن كان الباحث لا يراهم خارجها مادام المهمّ أن يؤدّي العلم إلى خشية الله.

كما أنّ القول بأنّ من مهمّاتنا على سطح الأرض تعميرها، يفنّد مذهب القائلين بتفضيل نوع من العلوم على آخر، فالجميع يعلم أن تعمير الأرض لا يتمّ بالاستغناء عن بعض العلوم والاكتفاء بالعلوم الشرعية، وإذا كان الأمر كذلك فالأمة الإسلامية بحاجة إلى جميع العلوم.

يضاف إلى ما سبق أنّ السلف الصالح لم يتعاملوا مع العلوم والعلماء تعاملنا اليوم، فكما كان للإمام مالك وغيره من الأئمّة مكانتهم المرموقة في المجتمع الإسلامي في عصورهم لدى العامة والخاصة على مستوى العلوم الشرعية، لم يهمل المجتمع بشرائحه المختلفة مكانة العلماء في المجالات المعرفية الأخرى.

فبفضل احترام السلف المتكامل لجميع العلوم اشتهر كل من ابن سينا، والفارابي، وابن جني، والجاحظ، وجابر بن حيان، والخوارزمي، وغيرهم من العلماء الذين لم يشتهروا بمجال العلوم الشرعية، وإذا كانت المجتمعات الإسلامية في القرون الأولى تعاملت مع العلوم والعلماء هذا التعامل التكاملي، فمن أين للخلف اليوم هذه النظرة الازدرائية للتخصصات غير الشرعية، إلى درجة أن مفهوم العالم في أذهاننا يكاد يقتصر على المتخصص في العلوم الشرعية، وإليه نصرف كل الآيات والأحاديث المتعلقة بفضل العلم، كأني بالمتخصص في المجالات العلمية الأخرى لا يؤجر على طلبه للعلم، رغم أننا في بناء مساجدنا وتركيب الميكروفونات فيها وعلاج مرضانا بحاجة إلى المتخصصين في الهندسة والطب وغير

ذلك من العلوم التي لا يستغني عنها أي مجتمع إسلامي. فهم السلف هذه الحقيقة فتطوّروا وطوّروا الحضارة الإسلامية التي حكمت العالم لعدّة قرون، ونحن أسأنا الفهم وقلبنا المعادلة فأصبحنا في ذيل الأمم.

لإثبات ما سبق، اختار الباحث عددًا من الآيات القرآنية التي يرى أنّها تشجّع على البحث العلمي والإبداع المعرفي بوصف ذلك جزءًا من هدايات القرآن الكريم، فقام بمقاربة الآيات المعنيّة مقاربة تداوليّة ونصّيّة، مع الأخذ في الاعتبار فهم السلف الصالح لهذه الآيات، فقامت الورقة على **المحاور الآتية**:

١. إطلالة على المقاربتين التداولية والنصّيّة

٢. الدعوة غير الصريحة إلى العلم عن طريق إشادة القرآن به وبأهله

٣. الدعوة الصريحة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي

٤. الخاتمة والنتائج والمقترحات.

١: إطلالة على المقاربتين التداولية والنصّيّة

١:١: التداولية:

التداولية أو التداوليات أو البرغماتية أو البرجماتية أو الوظيفية أو السياقية، مصطلحات متواترة في اللغة العربية في مقابل كلمة pragmatics الأجنبية المشتقة من pragma وتعني الحركة أو الفعل action ، بيد أن مصطلح التداولية هو الأكثر شيوعا بين الباحثين. والدال والواو واللام في اللغة أصلان أحدهما يدلّ على تحوُّل الشيء من مكان إلى مكان، والآخر يدلّ على ضعف واسترخاء. والدولة: انقلاب الزمان من حال البؤس إلى حال الغبطة والسرور. (١)

ومن حيث الدلالة الاصطلاحية للتداولية فقد أشار شارل موريس إلى ثلاثة مستويات للتحليل اللغوي: التركيب – الدلالة – التداولية، وأوضح أن هذه الأخيرة تبحث في العلاقة بين العلامات ومؤوّليها، إلا أنّ المرحلة الحاسمة في تطور التداولية تزامنت مع أبحاث أوستن وغرايس في إطار فلسفة اللغة، لتنفتح بعد ذلك على روافد معرفية متعددة جعلتها ملتقى عدة تخصّصات. وقد تضافرت جهود المنظرين لرفع الالتباس عن التداولية، إذ ذكرت آن ربول وجاك مورشلار أنها يمكن أن تعرف بصفة عامة على أنها دراسة استعمال اللغة، في مقابل دراسة النسق اللغوي الذي يدخل بصيغة صريحة في اختصاصات اللسانيات. (٢) وتنص بعض هذه التعريفات على أنّ التداولية تتوخّى تعميق الفهم ببعض الظواهر الخطابية المتولّدة عن التواصل، من قبيل الحجاج والاستلزام الحواري والاقتضاء، وهي ظواهر تفرض نفسها وتطفو على السطح أثناء التخاطب البشري. (٣)

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الدارسين حول التداولية" وتساؤلاتهم عن القيمة العلمية للبحوث التداولية وتشكيكهم في جدواها، فإن معظمهم يُقر بأن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرُّف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير "التداولية" من ثَمَّ، جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي. (٤) فحين يرى شارل موريس مثلا أنّ التداولية هي العلم الذي يعالج العلاقة بين الأدلّة ومؤوّليها، يستنتج من ذلك أنها علم يدرس الأدلة، وأنّ أيّة دراسة تداولية لا بد أن تهتمّ بالمتلقّي الذي يُعَدّ جزءا من السياق. أمّا فَانْ دَايِكْ T. A.VAN DJIK فيعدّ التداولية تخصّصا يتناول اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتبليغية واجتماعية في نفس الوقت. (٥)

---

(١) التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، ط١، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع-عمان، ٢٠١٦، ص١٣.

(٢) نفس المصدر، ص١٥.

(٣) نفس المصدر، ص١٨.

(٤) التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ص١٥-١٦.

(٥) التداولية في المعاجم العربية "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب"، فرحات بلولي، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، ع/٥، عام ٢٠١١. ص١٤٣-١٤٤.

ومنذ ظهور الاتجاه التداولي مع خمسينيّات القرن العشرين جعل **من أبرز مباحثه ما يلي:**

١. الإشاريّات:

وهي ملفوظات لغويّة لا ينفصل تأويلها عن سياق إنتاج الملفوظ. يفهم من ذلك أن الإشاريات عبارة عن علاقات محليّة غير منفصلة عن فعل التلفظ، وهو فعل يقتضي متلفظا يتوجّه بخطابه إلى مخاطب ضمن إطار زماني ومكاني مُحدّد؛ لذلك لا يمكن إسناد دلالة ما إلى ملفوظ معيّن دون الوقوف عند سياق إنتاجه بعناصره المختلفة غير اللغوية، فضمير المتكلم (أنا) مثلا يظلّ مجرّدًا مبهمًا ما لم تقترن إحالته بسياق معلوم لدى المتخاطبين، وكذلك الحال مع "الآن" و"هنا" وغيرهما.

ومن أمثلة الإشاريات الظروف، مكانيّة كانت أو زمانيّة، فيصعب على المتلقي أو القارئ تحديد موقف الحدث أو زمانه دون مشاهدته، وفي الحديث عند مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحرت هاهنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت هاهنا وعرفة كلها موقف، ووقفت هاهنا، وجمع كلها موقف". (١)

نلاحظ أن الإشارات المكانية في الحديث وردت لثلاثة مواضع، فلا يتأتى تحديد الموقف الذي وقف فيه عليه الصلاة والسلام إلا للذي شاهد الموقف معه صلى الله عليه وآله وسلّم. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال في خطبة ألقاها على أصحابه: "اعلموا أن الله قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا من عامي هذا إلي يوم القيامة". (٢) فلا يمكن تحديد الموقف وزمانه التخاطبي إلا لمن كانوا معه صلى الله عليه وسلم وقت إلقاء الخطبة. ولا يخفى مدى التلاقح الموجود بين هذه النظرية التداولية ومباحث المعنى المفهومي والمعنى الماصدقي لدى المناطقة القدامى.

٢. الافتراض المسبق:

يعتبر الافتراض المسبق من أبرز المفاهيم التداولية الحديثة، فقد نال الموضوع اهتمام الباحثين منذ العقد السابع من القرن العشرين، ولهذا المفهوم أهميّة كبيرة في عمليّة التواصل اللساني، كونه يعتمد على معطيات معترف بها مسبقا بين المتخاطبين، وتعتبر هذه المعطيات بمثابة المعلومات المدسوسة خفية، والتي بدون استحضارها يستعصي على المتلقّي فهم فحوى الخطاب على النحو الذي يقصده المتكلّم.

فالتداولية في هذا المبحث تؤمن بأن أفكار المتكلّم قائمة على اعتقاده بامتلاك السامع معلومات تؤهّله لفهم قصده، وذلك لأنّ عمليّة التأثير والتأثر، وما ينتج عنها من تبادلٍ للمعلومات والخبرات مهمّة في أحداث التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة، وبناء عليه فالافتراض المسبق في كل تواصل لساني لا بد أن ينطلق من معلومات متفق عليها، تمثّل الخلفية المعرفيّة

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث، ١٢١٨.

(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث، ١٠٨١.

لأطراف الحوار لأجل نجاح عمليّة التواصل بينهما. (١) وللنظرية نظير تراثي في مباحث دلالة المنطوق ودلالة المفهوم لدى الأصوليّين.

٣. الاستلزام الحواري:

والاستلزام الحواري conversational implicature يُعَدّ ظاهرة لصيقة باللغات الطبيعية ordinary languages وتمثّل هذه الظاهرة إحدى خصائصها الأساسية التي تؤسّس لنوع من التواصل يمكن وسمه بالتواصل غير المعلن (الضّمني)، بحجّة أن المتكلّم يقول كلاما ويقصد غيرهن، كما أن السامع يسمع كلاما ويفهم غير ما سمع. ومن ثَمَّ فإن دلالات الكثير من العبارات اللغوية لا تتحدّد فقط بما تدل عليه صيغها الصورية؛ لذا يلزم إيجاد تأويل آخر ملائم يحتّم الانتقال من معنى صريح إلى معنى مستلزم. فاستعمال جملة "ناولني الكتاب من فضلك" على سبيل المثال، المنجزة في مقام محدّد، يخرج من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس، وهو ما تفيده القرينة "من فضلك". (٢) ولهذه النظرية تسميات في التراث من قبيل: الخروج عن مقتضى الظاهر، أسلوب الحكيم، الالتفات، وضع الظاهر موضع المضمر، أو العكس، التحكُّم، التّعريض.

٤. نظرية الفعل الكلامي، أو الأفعال الكلامية، أو أفعال الكلام:

تعدّ هذه النظريّة من المباحث الأساسية والمهمّة للتداولية؛ حتى أصبح الباحثون يعتبرونه العمود الفقري للتداولية، علمًا أن هذه النظرية لم تكن نظرية لسانية محضة بقدر ما كانت مقاربة فلسفية لبعض القضايا التي تثيرها اللغة الإنسانية، ويعود الفضل في تعميق الفهم بها إلى الفيلسوف الإنجليزي أوستن؛ إذ سلّم الفلاسفة والمناطقة لأمد طويل بأننا نستعمل اللغة لوصف الواقع، لذلك تظلّ الجمل خاضعة لمعيار الصدق والكذب، فتكون صادقة إذا طابقت الواقع وكاذبة إذا خالفته. (٣) ثمّ توصّل الفيلسوفان إلى أنّنا عندما نتكلّم لا نقوم بوصف الواقع بقدر ما ننجز أفعالا في الواقع، ووضعا مجموعة من الأسس والمبادئ التي يستعين بها المتلقّي للوقوف على حقيقة الفعل الكلامي الذي ينجزه المتكلّم بملفوظاته التي قد توافق بنياتها اللغوية أغراضه الإنجازية، وكثيرًا ما تخالفها. لمثل هذه النظرية حضور بارز في مباحث الخبر والإنشاء وأغراضهما في البلاغة العربية، وكذلك مباحث الدلالة في أصول الفقه ما بين دلالة المنطوق ودلالة المفهوم، وما بين مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة.

---

(١) امتدادات الافتراض المسبق في ديوان لافتات لأحمد مطر، هشام فلفول وشفيقة العلوي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر، المجلد٤، ع/٢، ٢٠٢١، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) الاستلزام الحواري والافتراض المسبق في الأحاديث النبوية القدسية، محمد العربي حويذق، أطروحة دكتوراه، مقدمة لقسم اللغة والأدب العربي تخصص اللسانيات جامعة أدرار الجزائر، ٢٠٢٢م، ص٨٣.

(٣) التداولية أصولها واتجاهاتها، مصدر سابق، ص٨٦.

٥. الحجاج أو المحاججة:

الحجاج من المباحث التي تدرس تحت القضايا التداولية، وهو من تقنيات الخَطابة التي تقصد إلى استمالة المتلقِّين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو زيادة درجات تلك الاستمالة. ويعرّفه "جان ميشال أَدَامْ" بأنه: "منهج يهدف إلى تغيير تصوُّر المخاطَب بقصد هدف خطابي معطى لإعطاء آراء أو تصورات للمخاطَب تتعلق بالموضوع المعطى". (١)

يوظّف المتكلّم آليات لغويّة بعضها وظيفية تتمثّل في الروابط والعوامل الحجاجية، وأخرى معجمية تتمثّل في استخدام المفردات المعجمية استخدامات بيانية حجاجية، إلى جانب آليات تركيبية تتمثّل في الأفعال الكلاميّة الحجاجية التي تنجز بالتراكيب، وأخرى أسلوبية تتمظهر في توظيف أصناف من الأساليب لتحقيق أغراض حجاجية إقناعية، وكل ذلك للتأثير على المتلقّي واستمالته إلى رأي المتكلّم، فهذه الآليّات أو المؤشّرات اللغويّة التي تحقّق للمتكلّم هذا الفعل الحجاجي الإقناعي هي موضوع نظريّة الحجاج بمفهومها التداولي لا بمفهومها البلاغي الحديث.

٢:١: لسانيات النص أو علم اللغة النصي:

يرى طه عبد الرحمن أن النص بمفهومه اللساني الحديث هو: كل بناء يتركّب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات. (٢).

والحقيقة أنّ النص لا يتحدّد بكميّة من الوحدات؛ إذ يمكن إطلاق مصطلح النص على أصغر وحدة معجمية ما أفادت غرضًا تواصليًّا، فالوحدة المعجمية "مرحبا" للترحيب بالقادم إليك، نصٌّ في منظور النصّانيّين (علماء لسانيات النص) إذا وردت في السياق المناسب للغرض. كما أن مئة جملة أو أكثر قد تكون نصًّا واحدا، ويعني ذلك أنه لا يمكن تحديد النص من خلال كَمّه، فلا يحدد النص بمفهوم الجملة ولا بمفهوم الفقرة. (٣)

ويفهم من ذلك أن النص كيان مطّاط، فالقرآن الكريم من بدايته إلى نهايته نصٌّ، ويحتوي في نفس الوقت على نصوص كثيرة داخلية. ويرى هاليدي ورقيّة حسن أن كلمة النص تستخدم في علم

---

(١) آليات الحجاج في خطب الدكتور إبراهيم عمر كسفا، عبد الشكور يوسف إسحاق، ط١، MANSAS DESIGN& PRINTS, NIGERIA. ٢٠٢١م، ص٢٩.

(٢) في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي بيروت، ط ٢، سنة ٢٠٠٠م، ص٣٥.

(٣) الاتساق والانسجام في سورة الكهف، محمود بوستة، رسالة الماجستير، جامعة الحاج لخضر باتة، الجزائر، عام ٢٠٠٩م، ص١٨.

اللغة "النصي" للإشارة إلى أي فقرة منطوقة أو مكتوبة مهما طالت أو امتدّت، والنص هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محدّدا بحجمه. (١)

فالنص بكل اختصار هو حدث كلامي، صدر من متكلّم معيّن، نحو مخاطب معيّن، في سياق تواصلي معيّن، وتمّ به إنجاز الغرض المعيّن من التواصل.

أمّا لسانيات النص بوصفها العلم الذي اتّخذ النص –بمفهومه المحدّد مسبقًا– موضوعًا للدراسة، فهو حقل جديد بين الحقول اللسانية تشكّل تدريجيا مع نهاية الستّينيات وبداية السبعينيات، وقد جاء ليكون بديلا لمناهج لسانية سبقته، وينتقل بالدراسات اللسانية من محور الجملة في الدراسة إلى محور النص، أي من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص؛ لتجعل بذلك من النص الوحدة الكبرى للتحليل اللغوي، فهو الوصف والدراسة اللغوية للأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوّعة الأشكال للتواصل النصي. وقد استطاع هذا العلم أن يجمع بين عناصر لغوية وغير لغوية لتفسير الخطاب أو النص؛ إذ تتمثّل مهمة لسانيات النص في وصف العلاقات الداخلية الأفقية منها والعمودية، وكذا العلاقات الخارجية للأبنية النصيّة بمستوياتها المختلفة. (٢)

وللسانيات النص أسسٌ أو معايير تعتمد عليها في دراستها للظواهر النصّيّة، وهذه المعايير هي:

١. **الاتساق:** تدرس لسانيّات النص –على هذا المستوى– العلاقات الشكلية الخارجية بين أجزاء النص الواحد، وذلك في حالة اشتمال النصّ على أكثر من جملة، فلكي يعدّ الملفوظ من هذا القبيل نصًّا، ولكي يتمكّن المتلقّي من فهوم فحواه، لا بدّ من علاقات متشابكة بين الأجزاء المختلفة المكوّنة له، سواء من حيث إحالة بعض أجزائه على بعض، إحالة قبلية أو بعدية، أو من حيث الارتباط بين هذه الأجزاء ارتباطًا إضافيًّا أو تعليليًا، وغير ذلك من الآليات التي يتحقّق بها الاتّساق الشكليّ بين أجزاء النصّ الواحد.

٢. **الانسجام:** هو مجموع العمليات الخفية التي تجعل قارئ خطاب ما قادرا على فهمه وتأويله، ويعالج الانسجام العلاقة بين عالم النص وعالم الواقع، ويعبّر عن ذلك بعلاقة النص بالسياق، فالنص في حالة انسجام مع السياقات التي يظهر فيها، يتّسق مع سياقه العام الثقافي، التاريخي، وينسجم مع سياقه الخاص المسمى بالمقام، وهو السياق المباشر الذي يولد فيه، ويتحدد في ضوء هذا السياق معنى النص. ومن الوسائل التي يستعين بها المتلقّي على تحقيق انسجام النص داخليا في حالة فشل وسائل الاتساق الخارجي في تحقيق ذلك: اللجوء لعنوان النص، ومقام إنتاجه، والخلفيات المعرفية السابقة، والبنية العامة للنص، وغيرها من الوسائل.

---

(١) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، ج١، دار القباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص٢٩.

(٢) لسانيات النص نشأتها ومفهومها وأسسها، محمد عبد الرحمن أحمد محمد، حوليات كليّة اللغة العربية، جامعة الأزهر، ع/١٩، ج/٣ عام ٢٠١٥، ص٢٤-٢٩.

وفي هذا المعيار تتقاطع لسانيات النص مع التداولية إلى درجة كبيرة. كما أنّ لمعيار الانسجام حضور واضح لدى علماء التفسير قديمًا، وبصفة خاصّة في سياق ما يعرف بعلم تناسب الآي.

٣. **المقصدية:** يقصد بها أن الكاتب يضع نصه ليحقّق مقصدا معيّنا، فالنص حدث تواصلي يؤدّي وظيفته الإنجازية حسب ما يقصده المتحدّث أو الكاتب. وعلى هذا المستوى لا بدّ من استحضار النظريات التداولية السابقة.

٤. **المقبولية:** يتعلّق هذا المعيار بموقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة، ويراعي في المقبولية جوانب المتلقي الثقافية.خلاصة القول أنها تتعلّق بموقف المتلقي من قبول النص.

٥. **الإخبارية – الإعلامية – الإبلاغية:** يدرس على هذا المستوى مدى كون المعلومات الواردة في النصّ متوقّعة لدى المتلقّي أو غير متوقّعة حسب السياق والعلقة بين المتخاطبين. ومثل ذلك هو ما يعالج تحت أبواب أسلوب الحكيم وحسن التعليل وغيرهما في البلاغة العربية القديمة.

٦. **المقامية:** يدرس هنا علاقة النص بسياق إنتاجه، ويستعان في هذا الصدد بنظريّتي الاستلزام الحواري والأفعال الكلامية من التداولية.

٧. **التناصّ:** نوع من التعالق أو التبادل أو التداخل بين مختلف النصوص، ففي فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة. يدرس التناصّ العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به.

في ضوء مباحث هذين العلمين سيقوم الباحث بدراسة نماذج من الآيات القرآنية التي يعتقد أنها تتضمّن دعوة صريحة أو غير صريحة إلى البحث العلمي.

٢: الدعوة غير الصريحة إلى العلم عن طريق إشادة القرآن به وبأهله

يشتمل القرآن الكريم على عدد من الآيات التي تتضمّن دعوات غير صريحة إلى العلم باعتبار دلالة ظاهر النصّ فيها، وهي دعوات صريحة عند المقاربة التداوليّة أو اللسانيّة النصّيّة لهذه الآيات، علمًا أنّ هذه التأويلات التداولية أو النصّية لا تخرج عن حدود فهم السلف لهذه الآيات.

بعيدًا عن عشرات الآيات التي وصف الله سبحانه وتعالى ذاته القدسيّة فيها بالعلم والخبرة، تبعًا لما يفرضه الاعتقاد بمخالفته تعالى للحوادث على المسلمين من الابتعاد عن مقارنة صفاته جلّ وعلا بصفات البشر، بعيدًا عن ذلك، هناك عشرات الآيات التي أشيد فيها بمكانة العلم وأهله.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

٢:١: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ .(١)

(١) المجادلة/١١.

قد يتساءل الواحد: ما علاقة الأمر بالتفسّح في المجالس بوعد الله برفع درجات الذين آمنوا والذين أوتوا العلم، مما قد يوهم بخرق قاعدة المناسبة من قواعد مبدأ التعاون الحواري، والقاعدة تتطلّب أن يكون كل جزء من النص مناسبًا لسياق الحديث، ومن ثمّ يلجأ المتلقّي إلى الاستلزام الحواري لتحقيق التناسب المطلوب بين أجزاء النص القرآني.

والاستلزام الحواري الذي يلجأ إليه المتلقّي هنا هو الافتراض المسبق بأن سياق الأمر بالتفسّح والنشوز في المجالس قد يشعر البعض بشيء من الاستخفاف بمكانته الاجتماعية، وطيّب الله خواطرهم بأنّ هذه التسوية بينهم في المجالس لا تمسّ مكانتهم المتميّزة عند الله بإيمانهم وعلمهم.

ومن زاوية المقاربة الحجاجية يستنتج من إدراج الذين أوتوا العلم ضمن من يرفع الله درجاتهم أنّ العلم من دواعي رفع الدرجة، ومادام الأمر كذلك فهذا التركيب الذي ظاهره وعد برفع الدرجة يتحقّق منه فعل إنجازي غير مباشر هو الحثّ على طلب العلم.

وللتأكّد من عدم خروج هذا التأويل التداولي للآية الكريمة عن فهم السلف.

ها هو الزمخشري يقول تفسير الآية: "يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله، والعالمين منهم خاصّة...

عن عبدالله بن مسعود –رضي الله عنه–: أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغّبكم في العلم. وعن النبي صلّى الله عليم وسلّم: "بين العالم والعابد مئة درجة...". وعنه –عليه السلام– (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب...) .

وعنه عليه السلام: (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء). فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله. وعن ابن عباس: خيّر سليمان بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه... وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابا، وكل عزّ لم يوطّد بعلم فإلى ذلّ ما يصير...". (١)

ومثله تفسير القرطبي للآية الكريمة: "...

وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به... وبيّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس...". (٢)

---

(١) تفسير الكشّاف، الزمخشري، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض، ط١، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨، ج٦، ص٦٥-٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تصحيح: الشيخ هشام سمير البخاري، دار عام الكتب الرياض، (د.ت، د.ط)، ج١٧، ص٢٩٩.

٢:٢: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ . (١)

تنكير كلمة العلم في هذه الآية الكريمة قلّل من درجة إعلاميّتها وقرّبها أكثر من الإشاريّات التي لا تقبل التقيّد بدلالة محدّدة، فمن دلالات التنكير إبقاء دلالة الكلمة مفتوحًا على احتمالات متعدّدة، وإن ورد في آيات أخرى ما يقرّب إعلاميّة الكلمة ويخفّف من إشاريتها بفضل تناصّ هذه الآية الكريمة بتلكم الآيات التي نصّ على بعض العلوم التي منّ الله بها على نبيّيه داود وسليمان عليهما السلام.

ويستنتج من قولهما (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) بوصف هذا القول حجّةً، يستنتج منه أفضليّة المؤمن العالم على المؤمن غير العالم كما ورد في آية (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ)، ومن ثمّ أهميّة العلم ما دام أنّ تفضيل النبيّين عليهما السلام كان بسبب العلم. وهذا التصريح منهما يؤدّي غرضًا إنجازيًّا غير مباشر مفاده التشجيع على العلم.

ويمكن تأييد التأويل السابق بتفسير الزمخشري للآية الكريمة بقوله:"(عِلْمًا) طائفة من العلم... وفي الآية دليل على شرف العلم وأناقة محلّه وتقدّم حملته وأهله، وأنّ نعمة العلم من أجلّ النعم، وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله... وما سمّاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورثة إلا لمداناته لهم في الشرف والمنزلة...". (٢)

٢:٣: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ . (٣)

بهذه الآية المتناصّة مع الآية السابقة ارتفعت درجة الإعلامية في كلمة (عِلْمًا) الواردة على صيغة التنكير في آية النمل، وذلك بالتصريح ببعض الاحتمالات التي تنفتح عليها الكلمة في حالة تنكيرها، فمن العلوم التي فضّل الله بها عبده داود التحكّم في الجبال، والتصرّف في الطيور، وصنع الأشياء المختلفة من الحديد، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قرن علومًا من هذا القبيل بتفضيل نبيّه داود على كثير من عباده المؤمنين، فتلك حجّة يستنتج منها فضل هذه العلوم وحاجة البشريّة إليها.

وإذا تبادر إلى الذهن أن هذه الأمور مسخّرة لنبيّ الله داود عليه السلام بوصف ذلك جزءا من معجزاته ودلائل نبوّته، فالتطوّرات الحاصلة على أيدي العلماء (غير الأنبياء) اليوم عبر بحوثهم الجيولوجية التي استطاعوا بها اكتشاف ما أودعه الله سبحانه وتعالى في هذه الجبال من الكنوز التي

---

(١) النمل/١٥.

(٢) تفسير الكشّاف، ج٤، ص٤٣٥.

(٣) سبأ/١٠.

خلقها الله لفائدة البشر، وكذلك ما توصّل إليه علماء الحيوانات من تدريب الطيور وتسخيرها في مختلف المجالات، وما توصّلت إليه الصناعات الحديثة من استغلال الحديد لإنتاج مختلف الأدوات السلمية والحربية، كل ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ الأمر ليس مقصورًا على معجزة أو دلالة نبوّة، وإنما هو إلى جانب ذلك علم كما سمّاه ربّنا، ولا يتأتّى للبشر الاستفادة المثلى مما أودعه الله في الكون إلا بالبحوث العلمية والاكتشافات المعرفية.

قال تعالى:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. (١)

ويكفينا داعيًا للسعي وراء العلم أنّ ربّنا جعله من دواعي تفضيل نبيّه داود عليه السلام.

قال القرطبي في تفسير الآية: "(فَضَّلَا) أي أمرًا فضّلناه به على غيره، واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:... الثالث: العلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾. (٢)

٢:٤: قوله تَعَالَى:﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ . (٣)

هذه الآية تتمّة لسابقتها في توضيح المقصود بالعلم الذي فضّل الله به نبيّيه داود وسليمان عليهما السلام، فمن العلوم التي منّ الله بها على نبيّه سليمان تسخير الرياح وإنتاج مختلف الصنائع من النحاس.

وإذا تبادر إلى الأذهان أن كلّ ذلك من معجزات نبيّ الله سليمان، فالتطوّرات الحاصلة في صناعات الطائرات على أيدي العلماء واستغلال حركات الرياح فيها، وما تنتجه المصانع من الصناعات النحاسية، يؤكّد أنّ الأمر ليس مجرّد معجزة بقدر ما هو علم متاح لكلّ من له رغبة في البحث عن المعرفة وإنتاجها.

٣: الدعوة الصريحة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي في القرآن الكريم

إذا لم تكن الدعوة إلى العلم في الآيات السابقة صريحة، وكان استنباط ذلك بحاجة للجوء للتقنيات التداوليّة والنصّيّة، ففي ما يلي عدد من الآيات التي يراها الباحث صريحة في الدعوة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي:

---

(١) الأعراف/٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ٣٦٤.

(٣) سبأ/١٢.

٣:١: قوله تَعَالَى:﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾. (١)
دعا الله نبيّه داود عليه السلام إلى الإبداع في استخدام الحديد على غير مثال سابق، مع توظيف المصنوعات الناتجة عن ذلك فيما يرضي الله سبحانه وتعالى بوصفه ممن جمعوا بين العلم والإيمان، على خلاف قوم غير مؤمنين في عصرنا هذا تمكّنوا ببحوثهم العلمية وإبداعاتهم المعرفية من إنتاج أسلحة دمار شامل فتّاكة تباد بها الأبرياء، ولم يكن الإبداع المعرفي لينتج المبيدات البشرية لولا تقاعس المؤمنين عن أداء واجبهم في مجال العلم والمعرفة.

ولعلّ تفسير القرطبي للآية الكريمة يؤكّد ما زعمه الباحث من دلالتها على الدعوة للإبداع بقوله: "... قال قتادة: كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفّة والحصانة...". (٢)

٣:٢: قوله تَعَالَى:﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾. (٣)

يرى الباحث أنّ هذه الآية الكريمة تتناصّ مع الآية السابقة برفع درجة إعلاميّتها؛ إذ إنّ مجال الصناعات العسكرية من أبرز المجالات التي يستخدم فيها الحديد.

ويرى القرطبي أن في الآية دعوة إلى الإبداع في الصناعات بقوله: "... هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأنّ ذلك إنما شرع للضعفاء... وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضًا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حرّاثًا، ونوح نجّارًا، ولقمان خيّاطًا...". (٤)

٣:٣: أمّا قوله تَعَالَى:﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ . (٥)

ففيه دعوة صريحة أخرى إلى الإبداع في كل المجالات التي يحمي بها المسلمون مصالحهم أمام الأعداء، إذ قرن وعده للمؤمنين بأنّ الكفار لا يعجزونه، قرن ذلك بدعوة المؤمنين إلى المبادرة بإعداد العدّة للدفاع عن مصالحهم، فهو من علّم داود قبلكم صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل تشكرونه على تلك النعمة بمواصلة الصناعات الحربية انطلاقًا من حيث توقّف من قبلكم.

---

(١) - سبأ/١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ٣٦٧.

(٣) الأنبياء /٨٠

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ٣٢١.

(٥) الأنفال/٥٩-٦٠.

لا يبعد هذا التأويل عن تفسير القرطبي للآية الكريمة بقوله: "(إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم. وقيل: يعني في الآخرة.... (وَأَعِدُّواْ لَهُم) أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوّة للأعداء بعد أن أكّد تقدمة التقوى. فإنّ الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب...". (١)

فلا يخفى بذلك ما تفيده الآية من الدعوة إلى المبادرة وعدم الاستكانة والتواكل في مجال الصناعات العسكريّة، فقد وضع ربّنا للكون نواميس لا تتخلّف إلا في حالات استثنائية، ومن تلكم النواميس أنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

وللزمخشري تفسير آخر للآية الكريمة لا يبعد عن تأويل الباحث: "(مِّن قُوَّةٍ) من كلّ ما يتقوّى به في الحرب من عُدَدِها...". (٢) إذ أكّد الزمخشري بهذا التأويل أنّ كلمة قوّة بصيغة التنكير على هذا الشكل إشاريّة مفتوحة على احتمالات مختلفة باختلاف الظروف والعصور.

٣:٤: قوله تَعَالَى﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ . (٣)

ذكر الله سبحانه وتعالى عددًا من الآيات الكونية التي تمثّل موضوعات لعدد من العلوم الطبيعية والإنسانية، ابتداء بعلم الجغرافيا والفلك، مرورًا بعلم النباتات والزراعة، فعلم الجيولوجيا، والأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة، وعلم الحيوانات.

افتتح سبحانه وتعالى الآيتين باستفهام تقريري يعدّ فعلاً كلامياً غير مباشر يدعو به سبحانه وتعالى المخاطب إلى التأمّل في هذه الآيات تأمّلاً عميقًا يفضي الاستمرار فيه إلى الإبداع في العلوم المذكورة وغيرها. وورد هذا التأويل بقرينه عبارة (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟) التي تقصر خشية الله على العلماء من عباده، بمعنى أنّ من توصّل إلى الإيمان بالله عن طريق التأمّل في آياته تأمّل العالم الباحث عن حقائق الظواهر هو الذي يخشى الله حق الخشية بحكم ما عنده من المعرفة العلمية بهذه الظواهر التي يمرّ بها العوام مرور الكرام.

ولا أخال هذا التأويل بعيدًا عن تفسير القرطبي: "هذه الرؤية رؤية القلب والعلم؛ أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل...". (٤)

---

(١) الجامع لأحكام القرآنج٨، ص٣٣-٣٥.

(٢) تفسير الكشّاف، ج٢، ص٥٩٥.

(٣) فاطر/٢٧-٢٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج١٤، ص٣٤١.

وكذلك تأويل الزمخشري للآية الكريمة: "... ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا... **وفي الحديث:** (أعلمكم بالله أشدّكم له خشية)... فإن قلت: ما وجه اتّصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال: (أَلَمۡ تَرَ) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك (إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ) كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حقّ معرفته وعلمه كنه علمه". (١)

٥:٣: قوله تَعَالَى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ ﴾. (٢)

لعلّ هذه الآية من أوضح الآيات في إطلاق العنان للعقل الذي زوّد الله به خلقه ليتوصّلوا به إلى أقصى ما يستطيعون من الاكتشافات المساعدة على تعمير الأرض لا تدميرها، وذلك بقرينة (لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ) التي يقصد بها أن يستحضر الإنسان –مهما بلغ من الاكتشافات– أنّ كلّ شيء تمّ بقدرته تعالى وتدبيره، فلا يوظّف اكتشافاته العلمية إلا فيما يرضي ربّه.

ومثل ذلك ما ورد في تفسير القرطبي للآية الكريمة: "... **وقال ابن عباس:** إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان أي بينة من الله تعالى... لا تخرجون من سلطاتي وقدرتي عليكم". (٣)

٦:٣: أمّا قوله تَعَالَى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ ﴾. (٤)

فيفهم منه إشادة القرآن الكريم بجهد من اجتهد وإن أخطأ ما دامت متطلّبات الاجتهاد متوافرة فيه وصلحت النيّات، فالتشجيع على الاجتهاد عامل أساسي وراء الإبداع والاكتشاف.

قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة: "... لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده...روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر)...". (٥)

---

(١) تفسير الكشّاف، ج٥، ص١٥٤.

(٢) الرحمن/٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج١٧، ص١٧٠.

(٤) الأنبياء/٧٨-٧٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ٣٠٩-٣١٠.

٤: الخاتمة والنتائج والتوصيات

بعد إطلالة سريعة على المقاربتين التداولية واللسانية النصية، حلّل الباحث عددًا من الآيات القرآنية الكريمة التي يرى أن فيها دعوة مباشرة أو غير مباشرة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي، وتوصّل في النهاية إلى النتائج الآتية:

١. يحتاج القرآن الكريم لمزيد من التدبر والنظرة التكاملية للعثور على كنوز هائلة من هداياته التي تغطّي جميع مناحي الحياة البشرية.

٢. توظيف الآليات اللسانية الحديثة في تحليل الخطاب القرآني لا يخرج بمعانيه عن فهم السلف الصالح.

٣. يشتمل القرآن الكريم على آيات فيها دعوات مباشرة وغير مباشرة إلى البحث العلمي والإبداع المعرفي في كل ما يصلح أمور العباد في الدنيا والآخرة.

٤. لا يقتصر مفهوم العلم في الإسلام على العلوم الشرعية، فكلّ علم يؤدّي إلى اكتشاف الخيرات التي أودعها الله في الأرض والسماء لصالح عباده مرغوب فيه ويشجّع على طلبه ويؤجر طالبه.

وعليه يتقدّم الباحث بالتوصيات الآتية:

١. إقامة مزيد من الملتقيات والندوات والمؤتمرات حول هدايات القرآن الكريم بمحاور مركّزة في كل مناسبة من هذا القبيل، بدل دمج أكثر من محور في المناسبة الواحدة، فإن ذلك أدعى لتعميق النظر والبحث.

٢. إقامة دورات تدريبية في مختلف دول العالم الإسلامي على اكتشاف هدايات القرآن الكريم.

٣. تشجيع الطلبة المسلمين وكذلك الأساتذة الباحثين من مختلف التخصصات على القيام ببحوث علمية جادّة في هدايات القرآن الكريم ونشرها.

٤. إنشاء برامج على مختلف وسائل التواصل المسموعة والمرئية يتعلّق بهدايات القرآن الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانيًا: الكتب المطبوعة:

١. آليات الحجاج في خطب الدكتور إبراهيم عمر كسفا، عبد الشكور يوسف إسحاق، ط١، MANSAS DESIGN& PRINTS, NIGERIA. ٢٠٢١م.

٢. التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، ط١، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع–عمان، ٢٠١٦.

٣. التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، دار الطليعة بيروت، ط ١، ٢٠٠٥.

٤. تفسير الكشّاف، الزمخشري، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض، ط١، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨.

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تصحيح: الشيخ هشام سمير البخاري، دار عام الكتب الرياض، (د.ت، د.ط).

٦. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، ج١، دار القباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٠م

٧. في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي بيروت، ط ٢، سنة ٢٠٠٠م.

ثانيًا: الرسائل الجامعية:

٨. الاتساق والانسجام في سورة الكهف، محمود بوستة، رسالة الماجستير، جامعة الحاج لخضر باتة، الجزائر، عام ٢٠٠٩م.

٩. الاستلزام الحواري والافتراض المسبق في الأحاديث النبوية القدسية، محمد العربي حويذق، أطروحة دكتوراه، مقدمة لقسم اللغة والأدب العربي تخصص اللسانيات جامعة أدرار الجزائر، ٢٠٢٢م.

ثالثاً: الدوريات:

١. التداولية في المعاجم العربية "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب"، فرحات بلولي، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، ع/٥، عام ٢٠١١.

٢. لسانيات النص نشأتها ومفهومها وأسسها، محمد عبد الرحمن أحمد محمد، حوليات كليّة اللغة العربية، جامعة الأزهر، ع/١٩، ج/٣، عام ٢٠١٥.

٣. امتدادات الافتراض المسبق في ديوان لافتات لأحمد مطر، هشام فلفول وشفيقة العلوي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الجزائر، المجلد٤، ع/٢، ٢٠٢١.